

في تربية الارادة

للأب ارمند اودين ، احد كهنة رهبنة قلب يسوع الاقدس^١

نورته

الانسان ، خالياً من الصفات الحميدة التي يتلقاها كمال حياته الجسدية ، والمقلية ، والادبية . فيلزمه اذ ذلك ان يكتب هذه الصفات . على انه لا يكفي لهذا عمل يوم واحد ، بل لا بد ان يقضي كل مولود من البشر لآحراز هذه الصفات ، مدة طويلة ، مرتقياً بالتتابع الى درجة ما ، من قوة الجسد ، وتنوير العقل ، وحسن الاخلاق . على شرط الاتعوزه بموتلة من وكل الله اليهم تقوية ضفنه ، وهداية خطاياه المترججة ، وان هولاء الآ الذين ندعوهم مربى الولد وهديه ، وتربية الولد ان هي الا جملة ما يبذل من المساعي ، ويستعمل من الطرائق لتتواد وتتأصل في الناشئ الحصال التي يصبح بها سالم المزاج ، صائب العقل ، صالح السلوك . وجلي ان في هذا العمل المهم فروعاً تختلف كاختلاف القوى ، التي يجتهد المربي في اتانها وتربيتها في الولد ، فترى اهتمام المربين مصروفات تارة الى تشديد حياة الولد البدنية بالرياضات الجسدية ، وطوراً الى تقذية ذهنه بمعارف واسعة ومفتنة ، وحيثاً الى تمرين عقله على تمييز الحق عن الباطل ، والمستقيم عن الملتوي ، وصرة الى تهذيب قلبه لتككون شواعره كلها نقية ونبيلة ، واخرى الى تقويم ارادته وتربيتها بالملكات النفيسة التي يسود بها الانسان الفاضل صاحب الاخلاق الحسنة والنيات المحمودة .

الا اتنا - لسره حظنا - زى هذا الفرع الاخير ، مطروحاً به عرض الحائط ، في عصرنا الحاضر . على انه لا يقل عدد الوالدين البالغ منهم الجهل هذا الحد ، وهو انه لا يحظر على بهم ان ما يكتبه ابناؤهم من العلوم ، في المدارس ، لا يكفي اكملهم وسادتهم ، ولا ينبتهم البتة عن تلك الفضائل

(*) صحح عبارته وعنى بنشره النفس اسطغان فرحات الجاجي اللبناني

التي لا تحصل الا بقرية الارادة ولقد يشترك في هذا الضلال عنه كثير من
 مديري المدارس واساتذتها ، متوهمين انهم يقون بواجبهم التهذيبي ، بمجرد اعانة
 تلامذتهم على توسيع دائرة دراستهم الطمينة ، ولا يعينهم أنضلوا لمرشادهم في
 سبل الفضيلة ، وتسلحهم ضد الشهوات التي تفسد التواد وترفع الارادة ، ام
 حققوا ذلك وقاية لهم من الشقاء والملاك . فحذا لو نعت هذه المنحة الادبية
 لازالة ذلك الضلال من بعض الذين دعاهم الله لتلك المهمة الحزيلة الشرف
 والكثيرة الصوبة ، مهمة تهذيب الاحداث وتقوم ارادتهم . لكن كالتأ
 من كنت ، ايا القارئ الكريم ، يمكن ان تفيدك مطالعة هذا المقال الذي
 يعرض عليك ما قاله اصحاب الخبرة في هذا الموضوع الشريف : اي تربية
 الارادة . فان تبيساتهم ونصائحهم تساعدك على تكميل ما بدأت به حتى
 اليوم ، لتجميل نفسك بمزايا الارادة النجبية . ولا يصعب عليك ان تقطف من
 هذا للمقال مشورات خلاصية تلقيها على ذويك واصحابك في مناسب الاوقات .
 لذلك نقسم هذا المقال الى قسمين : في الاول نبحت عن اثبات اللزوم
 لتربية الارادة . وفي الثاني نبحت عن تبيان ما يجب فعله ، والمثابرة عليه .
 لتكون هذه التربية جيدة وغزيرة الثمار ، والله سبحانه هو المنير والمهدي الى
 حيث سداد الكلام وانتفاع القارئ .

في لزوم تربية الارادة

نسمع كثيرين يتساءلون : لماذا لم يزال المجتمع الانساني ييمد جده البمد عن
 تام السلام والراحة ؟ وماذا يعوزنا ، بينما ان العلوم تتقدم ، وتكثر في اغلب
 البلدان اسباب للرفد، وتنتفع في كل جهة من المصمور مدارس لتأديب الاحداث ؟
 فما احسرته ! ! ! حقا ان ذلك كله قلما يفيد لاسعاد البشر . . . وما نفتقر اليه
 اسد الاقتار هو ان يدرك الوالسدون والمربون ما يجب عليهم من الاعتناء .
 بتهديب ارادة الصغار . لان اهمال هذه المهمة يؤدي الى اوجم التبعات ، كما
 سنبين ذلك ، شارحين ، من جهة ، سوء الحالة التي تحصل للانسان من وراء

خشونة ارادته ، وقصورها ، ومن جهة اخرى ، ما تجلبه تربيتها الحسنة من المنافع التي يفوق ثمنها كل قياس وحد .

واذن فتسجل لك هذه الامور بتمام السهولة ، اذا اعتبرت اولاً ما كان في نية الخالق مقام الارادة في حياة الانسان . فان هذه القوة الشريفة هي ، مع العقل ، مختصة بالنفس الروحية التي يمتاز بها الانسان عن البهائم ، خلافاً لما فيه من القوى الحسية التي يشاركه فيها سائر الحيوانات . اما الفرق بين العقل والارادة ، فهو اننا بالعقل ندرك الحق ، وبالارادة نعمل الى الخير ، ونختار بين الطرق التي نحسبها مفيدة لوصولنا الى السعادة . و ارادتنا في هذا الاختيار هي حرة ، كما يؤكد الوجدان ، وتشبه الفلسفة ، وبالارادة يحرك الانسان سائر قوى نفسه ، ويستعمل اعضاء جسده كما يريد . ولهذا يقال : ان الارادة ، هي - في طبيعة الانسان - المحرك الاول ، الذي يتلقى به ، ويعطيه سائر مبادئ العقل ، غير ان الارادة تحتاج الى ان يهديها نور العقل ، لانها لا تستطيع الاتجاه الى الخير ، الا اذا ادركه العقل . ولهذا كان من مقتضيات حسن الحياة الادبية أن يسبق دائماً فعل العقل مقاصد الارادة . وان يكون العقل كالدليل الذي يميز الصراط المستقيم ، ويأمر باتخاذها . فتتقاد له الارادة ، وبالتالي جميع القوى التي تحركها الارادة .

والكن هل يجري الامر ، دائماً ، كذلك ؟ هل نحافظ على هذا النظام الجليل الذي اقامه الخالق بين قوى نفسنا بحيث تختص الرئاسة بالعقل الذي تدعن له الارادة ، وتتسلط هذه على جزء طبيعتنا الحيواني ؟ هيئات ان يتم هذا في حياة معظم البشر . فاننا نختبر كل يوم ان الجزء الحيواني المذكور يحاول اختلاس الرئاسة من العقل ، واستيلاء الارادة ، وكان الواجب ان يخضع لها متقاداً ، واذا كانت الارادة غير مسلحة لمقاومته ، يتغلب عليها ويسترقها ، فتستط من مرتبتها العالية ، وتخسر ولايتها ، وتأنف اتباع الشهوات ، فتصير هذه ، في حياة الانسان ، بمنزلة المحرك الاول الذي تتعلق به افعال النفس بأسرها . فيا لتعاسة من اضحى كذلك ، اي عبداً لاهوائه . ويا لانحطاط حياته الادبية وخرابها . ويا لسوء عواقب هذه المصيبة كما في الحياة الحاضرة ،

كذلك في الاخرى ، حيث ينجز قضاء العدل الالهي على من شئوا صورة الله المطبوعة في انفسهم ، مخضمين الروح للمادة ، وموثرين مطاوعة اميال دينية عمياء ، على الامتثال لمشورات العقل ، واتباع قيادته .

ولكي يتجلى لك باكثر وضوح ما في هذه الحالة من الشقاء والسذل ، انتبه الى هذه الملامات الخس التي يجوز ان يُعرف ويميز بها كل انسان ضعيف الارادة ، ضبطت الشهوات على زمام حياته .

اولاً : انك تراه كثير التقلب بين حالتين متضادتين . الاولى : الجمود ، او الثبور من كل جد وعمل ، والثانية : التحرك الشديد ، والثبور في الاعمال بلا فطنة ، ولا ترتيب . وعلة هذا التقلب هي ان الشهوات تدفع ، احياناً ، الى العمل كريح عاصفة ، فتتقاد لها الارادة ، غير قادرة على تعديل حركاتها ، وحياناً اخرى ، تنكف عن المبوب ، فتستمر قوى النفس كلها كاجزاء آلة تلازم السكنون ، ما لم يؤثر فيها محرك آخر . وغني عن البيان ان كمال الانسان ليس هو في احد الطرفين ، بل في وسطهما . فمن يمجز عن الوقوف في هذا الوسط ، بل ينتقل دائماً من احد الطرفين الى الآخر ، تكن حياته من ثم قليلة المنفعة فارغة من كل مشروع مهم .

ثانياً : ان من استعبدت الشهوات ارادته ، ينفر من كل اجتهاد وعمل ، وهذا مما يلعب حياته كل افادة ، لان الاجتهاد ، هو شرط ضروري للتتقي ، والنجاح في دائرة الاعمال البشرية برمتها .

ثالثاً : من لم تكن ارادته قوية ومُعْتَمَدة من تأثير الشهوات ، قلما يقدر على الاقدام لتأمين منهجه ، فتراه صريراً عنيدة متراحاً ذات اليمين وذات الشمال ، متردداً ، ينتصه الزم . ما لم تدفع به قوة من الخارج ، الى احدى الجهتين ، فتقل جداً في حياته الاعمال التي وطن النفس عليها بزاوله حرية ارادته ، ويناء على بواعث صوابية لديه ، تأملها بمقله .

رابعاً : يحدث كثيراً ان اصحاب الارادة الضعيفة يجمعون عن اجراء ما نوره من الاعمال . كأن بين النية والانجاز مسافة شاسعة ينصر عليهم اجتيازها ، وذلك لان ادنى صعوبة تعترضهم تكفي لتخويفهم ، واتخاذ جذوة نشاطهم ،

وصدّهم عن الجواز ما عزموا عليه ؛ ولهذا مهما كثرت بعد ذلك في حياة بعضهم المقاصد الحميدة يصب تقيدها ، لتقص الإرادة فيهم ، وبالتالي لضحتها .

خامساً : انه من اصعب الضربات على واهن الإرادة أن يداوم على ما شرع به من الاعمال ، فيتمه الى النهاية . لان هذه المداومة تقتضي ثبات الإرادة ، ومقاومة الملالة التي يحملنا عليها ميلنا الطبيعي الى اثار الاشياء الجديدة ؛ وصراراً عبيدة ما نصادفه من الموانع فوق ما انتظرناه ، كذلك ما يصيبنا من خيبة بعض آمالنا ، حيث رجونا سريعاً وحيناً ، ومساعدتين نشيطين . فن لم يروض ارادته على الصبر ، رغمًا من كل علل الاضطراب واليأس ، فانه لا يقوى ابدأ على تكميل ما بدأ فيه من الأعمال ، اياً كان ذلك الصلح ، بل يتركه ويشرع في غيره . ثم يعدل عن هذا ، كما عدل عن الاول ، وهكذا الى النهاية . فاي ثمرة يا ترى في حياة كهذه ، يقضى زمانها في مشاريع لا يتوصل الى نهاية احدها ؟ فيتحقق في كل منها قول السيد المسيح له النجود : « ان هذا طفق بيني ، ولم يستطع ان يكتمل » .

واليك الآن ، الى جنب تلك الشوائب الحاصلة من ضعف الإرادة ، ما يجلبه حزمها من المنافع الثمينة ، وما يضمنه لصاحبه من الهناء والكرامة . فتذكر ما ادهشك ، مثلاً لما طامت الكتب التاريخية ، من مآثر بعض الناس الذين شرفوا اسماهم ، وخلدوا ذكركم ، بما باشروه من الاعمال العظيمة والجزيلة الفوائد ، اترتب في انهم كانوا من ذوي الإرادة القوية ؟ تأمل ما كان لهم من التأثير في معاشريهم ، فكم من مرة ارغموا غيرهم على الخضوع لسلطتهم ، وكم كان لآرائهم ومشوراتهم من النفوذ سواء أكان في المقول ، ام في القلوب . وكم انتصروا على ما تعرض لمشاريعهم من الموانع الصادرة ، تارة من قوى الطبيعة ، وطوراً من نوايا الخصوم ؛ وكم صارت اجسادهم آلات متقادة تمام الانتقاد ، لإقضية عقولهم ، وتحريك ارادتهم ، سواء أكانت هذه تفيض على الجسد شيئاً من مكائنها وحزمها ، فتقويه على احتمال الاتباب التي يصعجز عن مقاساتها اغلب البشر ، ام كانوا يواصلون مساعيهم ، رغمًا من رزوخ الجسد وانحطاط قواه ، غير مباليين بالآلمه ، بل مستخفين بفقدان الحياة ، اذا اقتضاه

انجاز مهمتهم . وكم استفاد البشر من نشاط اولئك الابطال الذين وسع بعضهم حدود العلم باكتشافاتهم البديعة ، وآسس البعض الآخر جمعيات تقصر الستنا عن الثناء على ما تأتى به من المنافع الغزيرة . وبينما انا مطمئك على هذه المفاخر ، الا يحظر على بالك اولئك الذين استحقوا مدح الجميع ، اعني بهم القديسين ؟ اجل ان جرة الارادة قد بلغت فيهم درجة لم نر غيرهم ارتفع اليها . فما الذي واجه تلك الثار التي حملتها شجرة ارادتهم البشرية ، حيث انهم بذلوا الاعتناء الواجب في صيانتها وتربيتها ، على ما يقتضيه الشار الديني والانساني الشريف .

٢

في اسلوب تربية الارادة

اذا ينحصر هذا الاسلوب في ثلاثة ابواب من التنبهات والنصائح ، واليكها :
اولاً : تمرين الارادة .

ثانياً : تحمين حالة الجسد ؛ لئلا يحول تشوش الاخلاط ، او تهيج الاعصاب دون نشاط الارادة ، وتفردها .

ثالثاً : اصطفا . ما يحيط بنا من الاشخاص والاشياء التي تؤثر في حواسنا ، وبالتالي في ارادتنا .

اولاً : كيف نمرن ارادتنا ؟

لا ينمض عليك شيء ؛ مما يلزمنا قوله ، في هذا الباب ، اذا لاحظت كيف تنهج الامهات او من يماونهن على ترويض الاطفال ، سواء في السير ، او في التكلم ؛ فانه جلي ان الطفل ، لو ترك وشأنه ، لصعب عليه ان يتعود المشي بحسن استخدام رجليه ، ولتعدر عليه ان يتعلم تحريك لسانه وشفتيه كما يستلزمه النطق . فكيف يتلافى المربون هذا المحذور ؟ انهم يأمرن الطفل بتدريب حركاته الطبيعية ، بحيث يشدد بعضها ، ويخفف البعض الآخر ويكرر بعضها ، ويعمل البعض الآخر ، حتى يعود اعضاءه التحريك ، كما يلزم ، ليكون مشيه مستقيماً ، ولفظه مفيداً للتعبير عن افكاره .

فقس على هذا المثل ما ينبغي ان نفعل لتصير ارادتنا قوية حائزة على مل

حريتها ، وقادرة على قمع الشهوات واخضاعها لولايتها . فلا شك ان بلوغك الى هذه الفوائد الثمينة يقتضي ترتيباً لافعال الارادة ، واذن فما هي قواعد هذا الترتيب ؟ هي كثيرة ، اهمها :

١ ألا يكون للارادة محرك سوى العقل الذي يمرض لما ما يلزم قصده من الخير وابتاؤه من الشر . هذا هو النظام الذي اقامه الله في الطبيعة الناطقة ، بحيث تتعلق مقاصد الارادة كلها بأقضية العقل الذي يختص به ادراك الحق وتمييزه عن الباطل . فكلما زاعت الارادة عن هذا السبيل ، ومالت الى ما تحمّلها اليه الحواس دون حكم العقل ، اعرضت عن الحق ، واتجهت الى حيث النقي ، وفي هذا خراب الحياة الادبية .

ولكننا اذا ما قلنا ان العقل وحده يلزم ان يدبر الارادة ويسددها ، فلا تفهم بذلك ايها القارئ العزيز ، اننا ننفي العوامل الخارجية التي يستعملها الله لاطلاع عقولنا على ما يريد ان نتخاره ، او نمنع عنه . فان عقولنا نفسه ، اذا كان مستقيم الحكم ، يقتضي بوجوب الانتياد لتلك التأثيرات ، التي منها اوامر الرؤساء الشرعيين ايأ كانوا ، ومشورات الناصحين الموثوق بهم .

فيسوغ ان نلخص ما قلناه في شرح هذه القاعدة الاولى هكذا : لا ترض بان يكون فيك فمل ارادة ، ألا ما هداك اليه عقلك المطلع على الحق ، سواء كان عقلك يبصر الحق بقوة ذاته ، ام يرشده اليه من وكلمهم الله ببقاياتك .

٢ ان تحمذ دائماً من تبتك الشائبتين المتضادتين اللتين قلنا . يلم منها واهنو الارادة كما سر بك . احدهما : التهور ، اي طيش من يقدم على بعض المقاصد قبل ان يتروى بالكفاية ، ويفحص وزن الملل التي تدعوه الى اتخاذ هذا السبيل ، او ذلك ، والاخرى : جمود الذين لا يقوون على ارجاع ميزان ارادتهم ، فهما تبين لهم من البواعث والحجج ، لا يزالون مترددين الى ان يندفع بهم تأثير ما من الخارج . فاجتهد في ان تثبت دائماً في الوسط بين ذينك الطرفين الطائنين ، على حد سواء . بحيث لا تقدم على قصد ما ، في اسرهم ، الا بعد التأني والتروي ، فيها الوقاية من كل عثر ، ولكن حاملما يستير عقلك بالكفاية ، لا تتأخر عن العزم ، واعتد كذلك ان تتحرك من

تلقاه نفسك كشخص ذي حرية فلا تشبه الآلة التي تلازم سكونها ما لم تحركها
قوة خارجية ١ .

٣ ان تحترز كذلك من ضعف من يخاف ان يتجاوز الزم الى الفشل . فلا
تتأخر عن تنفيذ ما وطنت نفسك عليه ، الا مراعاة لظروف تدلك على ان الوقت
الملائم للعمل لم يحن بعد . فانك بهذه السرعة في الانجاز تمتق ارادتك من تأثير
الاهوال الباطلة ، وتريدها نشاطاً وحرماً .

٤ ان تكون ثابتاً في العمل ، صابراً على ما تصادفه في طريقك من
العوائق والمراقيل ، فلا تعرض عما شرعت فيه الا اذا وصلت الى كاله . وكأنك
ما كان العمل الذي عزمت عليه ، لا تكتف ابدأ بان تنجزه انجازاً ناقصاً ، بل
وطد نفسك على حب الاتقان ، وعلى كراهية التقصير ، ليس في كبير المشاريع
فحسب ، بل في اصغر الامور ايضاً . لان ما توليكه هذه الملكة الحسنة من
المنافع يفوق الوصف ، ومن يستهل التقصير والتغافل في الامور الصغيرة فانه
قلما يكون مجتهداً ومدققاً في الخطوب الكبيرة . ولكن هذه الملكة النفيسة
لا يمكن اكتسابها ، ولا ثباتها في النفس ، الا بمقاومة دائمة لميل طبيعتنا الساقطة
الى الارتخاء والاستراحة . فهما عودت نفسك الجذ والتدقيق لا تستقر ابدأ عن
مراقبتك ذاتك ، واكراه ارادتك ، فلا ينبعث الميل المتيق الى الكسل ، فيرجع على
المادة المكتسبة ، ومختبر ان هذه المراقبة تصب في الاشياء الصغيرة والاعتيادية ،
اكثر منها في الامور الخطيرة ، حيث يغلب طبعاً الى الاكتراد والاهتمام .

٥ ان تنهج في ترويض ارادتك درجات متتابعة ، مبتدئاً بما هو ابسط
واهم ، ومتقدماً رويداً رويداً الى ما هو اقل واعسر . وهكذا تعود نفسك
بالتدرج ما هو الاعظم والاسمى في الفضائل ، حتى تنال المقصود ، واذا روعك
شيء مما تشمر بوجوبه عليك ، لانه يضاد اميالك وعوائدك ويقضي عليك ببعض
التضجيات ، فابتدى بالاقدام على فعل فيه تسم شيء من ذلك الفرض . فانك
بهذا تشجع نفسك على انجاز الباقي ، مثلاً ، ان كان يصعب عليك ان تنهر بكل
حركات الغضب فيك ، فتكون دائماً وديماً بشوشاً على حد سواء ، فروض نفسك
على الصبر والصمت في الطوارئ الخفيفة والاعتيادية ، ووطن عزمك على ان

تحمّلها بغير تدمير ولا تخمس ، فتكون غلبتك هذه على نفسك خطوة أولى يتقدم منها الى ما هو اعلى واكمل ، وكذلك من تعود البخل وصار صراً عليه ان يتصدق بيد سخية ، فليأخذ في الاحسان بشيء يسير من ماله . ومن ألف اضعاف اوقاتِه بمطويات تافهة ، واستصعب ابداً ما باسئال قائمة ، فليكره نفسه على ترك شيء من تلك الملاهي الباطلة ، فارضاً على ذاته كمية معينة من الاعمال الجدية ، فيسهل عليه ان يتدرج من هذا الابتداء الى اصلاح سلوكه بالتمام .

وهذه النصيحة تفيد خصوصاً المهذبن والمرشدين الذين يصتوبون بتربية تلاميذهم في سلم الفضائل لائق ، يا هذا ، ان فرضت على تلميذك منذ البدء انطالاً متممة ، على حين انه لم يستطع لمباشرتها ، تراه مستقلاً ومشمئزاً ، لكن اذا ربيت ما اشرت به عليه من افعال العبادة والاحسان والطاعة والصبر وسائر الفضائل الالهية والادبية ، حتى يتقدم دائماً بما هو اسهل الى ما يقتضي جهداً وكفراً بالذات ، فانك لا تلبث ان تتعجب من مفاعيل هذا الاسلوب الجميلة ، كما واننا نرى ، في تعلم الفنون ، ان حكمة المعلم تبدو بتنظيمه التمرينات حتى يوقفي التلميذ الى الكمال بدرجات متصلة .

ولا يسوغ ان نختم هذا البحث في تمرين الإرادة ، ضارين صفحاً عما تأتينا به رياضات الحياة الروحية من المساعدة الشينة لهذا التمرين ، قبل ان نبين ان المؤمن الذي يكف على التأمل في الامور الالهية ، يزداد معرفة بالحير الاعظم فيضطرم فؤاده حباً به ، مما يقوي جداً ارادته ، ويمدما للرضى بكل تضحية تظهر لازمة لتمجيد الله تعالى ، وللبلوغ الى تمام الاتحاد به . وبهذا التأمل عينه تطلع النفس على حقارة الامور الفانية ، وقوة الملل التي توجب علينا التجرد منها ، فتسهل من ثم مقاومة الشهوات التي تجرُّ غالباً الى مطاوعتها ارادة من لم يتلح بالتأمل لمحاربتها ، واذا ثابت ايضا على الرياضة النفسية المروقة بفحص الضير ، ترى بها ما يتخلب على ارادتك من الاهواء ، ويتفكك الاحتيار اليومي لتعلم ما هي الاميال التي يلزمك ان تجتهد خصوصاً في اعتناق ارادتك من تأثيرها ، الذي يفقدنا شيئاً من حريتها وعنيتها عن اتباع احكام العقل وحدها ، في جميع نياتها ، كما يتبين انه هو اول واجب على من يريد ان ينجح في تمرين

ارادته . وغني عن البيان ان الرياضات الروحية تنفمنا ايضاً منعمة عظيمة بما تحتوي عليه من التماس المعونة الالهية . وبهذه يتطرق كل ما نستطيع الحصول عليه من حزم الارادة ، وكال حريرتها ، اكثر من تعلقه بالمساعي الانسانية . وقد ابان الاختبار ما لم يزل يوضحه كل يوم ، من ان الطاكفين على الرياضة المذكورة يكتبون من قوة الارادة ما يمد جداً سائر البشر عن مساواتهم فيه ، وحبسنا برهاناً على ذلك ما يعرضه لنا تاريخ القديسين من الاعمال التي يدمشتا عظمها وصوبتها ، ومكثتهم من مباشرتها نعمة الله التي سعوا معها بارادة مقتدرة لا يربحها خطر ، ولا يوقفها مانع ، ولا تريدما ربح التجارب الانشاطاً وحرارة .

ثانياً : كيف يلزمنا ان نعتي بحسن حالة جسدنا ؟

رب قارئ يخال اليه ان البحث في هذا الموضوع هو باطل ، وان الضاية بحسن حالة الجسد ليست من مستلزمات تربية الارادة ، فيقول :
تقدم ان الارادة القوية تنفي صاحبها عن قوة الجسد ، وبالتالي ان لها في الاعضاء تأثيراً يزيدما تضلماً ومقاومة لملل التعب . فاذا قرأ ارادتك ، يا هذا ، بما سر بك بيانه من القواعد لترويضها ، وحبسك ذلك . ولا حاجة لك الى شيء من عافية جسدك . ويؤيد ذلك ما اوردناه مؤخراً من امثال القديسين الذين فاقوا سائر البشر بحزم ارادتهم ، مع انهم قلما اعتنوا باحوال اجسادهم . لا بل انهم عاملوا هذه الاجساد شر معاملتها ، اضعفوها بالاصوام المتواصلة ، وحرموها كل راحة ، وعذبوها بالمجالد والمسوح وغير ذلك من ادوات الاماتة الشاقة . وقد علمونا بمثلهم هذا ألا نعتني ابداً بصيانة الصحة الجسدية ، اذا كنا نود ان نحصل على كمال الارادة .

على ان اول هذين الاعتراضين يحل بمجرد الانتباه الى ان حزم الارادة ، مهما كان كافياً لاغنائنا عن صحة الجسد ، فلا يأتيها هذه المنفعة ، الا اذا اكتسبناه بتربية ارادتنا . وقد يمننا عن النجاح في هذه التربية سوء حالة بدننا . فهذا هو المحذور الذي يجب ان نعلم كيف نتلافاه .

اما الاعتراض الثاني المأخوذ من سير القديسين ، فانه يتضمن غلطاً كبيراً . الا وهو الزعم ان خدام الله هؤلاء الاجلاء لم يقصدوا باماتتهم تحسين احوال

اجسادهم . . . نعم انهم كانوا يصفون جداً جزء طبيعتهم الحيواني ، ويمدونه بتشغلات يظهر انها . كانت اجدر لقتل الجسد منها لمطافاته . لكن اعتبر ، يا هذا ، انهم بهذه الاماتات توخوا قهر الجسد واخضاعه التام للروح ، وافلحوا في هذا افلاحاً جد عجيب . واذن فهذا ما ينبغي ان يصمله كل من يريد ان يتقن تربية ارادته . ومزادنا ليس بمختلف عن ذلك ، اذ ننادي بلزوم العناية بمجسن حالة الجسد ، فاننا بهذه العبارة نفني خلوا الجسد من كل الخراف يكون له ادنى تأثير سي في اعمال النفس ، وخاصة في نوايا الارادة ، وقد ابان الاختبار ان هذا التأثير المؤذي يحصل من علتين . اولاهما : آفة صحة الاعصاب ، لان حالة الاعصاب تؤثر كثيراً في المخيلة ، ومن اختلال المخيلة تصدر بلبلة في الافكار ، وخلال في الاحكام ، مما يؤول الى تشويش اعمال الارادة ، كما نراه في قوم تتقلب ارادتهم في كل دقيقة ، مثلاً كأن يقصدون اغراضاً وهمية غريبة ، فتوهم لهم المخيلة الثائرة ان هذه الاغراض معقولة ومفيدة . وثانيتهما : هي شدة الشهوات التي يصب على الروح ان يقهرها ، وقد نتب هذه الحال الى قرط قوة الجسد ، وغزارة اخلاطه . واذن فالجسم القوي قد يصير حملاً ثقيلاً على النفس ، فتضعف حياتها العقلية والروحية ، بمقدار اشتداد الحياة النباتية والحيوانية ، بزوال التوازن بين جزئي طبيعتنا . ولا يخفى ان صيانة هذا التوازن ضرورية جداً لكمال الانسان الادبي . وهذا ما فهمه جيداً القديسون والنسك ، ولهذا لم ينجسوا عن اضافة الجزء الادنى والاحقر ، مخافة ان يرجح على الجزء الاخر الاشرف . ويتشفي آثارهم كل من يتم بالمحافظة على كمال حياته الروحية والادبية ، فجهداً في استبعاد جسده وحبس شهواته في حدود الحلال والصواب .

نعم ان ما يستعمل من الاساليب والاسلحة في هذا الجهاد يختلف بين فرد وفرد ، على مقتضى الظروف ، فليس في مقاصد الله ان يارس الجميع التشغلات على حد سواء ، ولكن الاستفتاء التام عما يكسر من حدة الجسد ، ويكبح جماحه ، فغير مستحب ، خاصة لمن لا يرضى ان تتسلط الشهوات على ارادته ، مما يؤول الى انحطاط كمال الحياة الادبية ، وتورط النفس في الرذائل والقبائح . وقضاري القول ان من شاء ان تكون ارادته قوية خالصة من ربة

الشهوات ، وجب عليه ان يقدم لجمده الطغام والشراب اللازمين له ، ضمن دائرة الاعتدال ، حتى يجتنب كلا المحذورين اللذين صر بيانهما ، اي ألا يحدث في الاصاب اختلال من جراء الاتهاب المفرطة ، اذا كده فوق طاقته ، او من سوء هضم الاطعمة ، او من شرب ما يهيج الاعصاب ، ويجول دون حسن حالة الدماغ ، وألا يكون لالاهواء الحيوانية من الثوران والسطوة ما يؤول الى ضعف الإرادة وتقصان حريتها وخصوصها للجزء الأدنى ، الذي يجب ان تسوده .

ثالثاً : كيف يؤمن ان نطقني الذي يؤثر في ارادتنا سواء كان من الاشخاص او من الاشياء التي حولنا .

ان التنبهات التي تأتي بها ، في هذا الجزء الاخير من هذا المقال ، هي من الاهمية بمكان ، بحيث تضاد اهمية ما سبق لنا تبيانه . لان الاختيار اليومي يشمرنا بان ما يحيط بنا من المحسوسات يؤثر في ارادتنا ، كأحوال جسدنا ، وليس في وسع الانسان ان يمنع او يغير هذا التأثير ، ولكنه يستطيع ان يختار ، وبالأحرى ان يمين كثيراً من الاشياء التي يعرض بنفسه لتأثيراتها حيث يعرف انها تريد ارادته نشاطاً وبياتاً في النيات الصالحة . او يمكن ذلك تفضيها وتميل بها الى الدنيا والمحظورات .

وحيث ان اول ما يؤثر في ارادتنا من الاشياء التي تحيط بنا هو الأشخاص الذين نطرحهم ونؤلفهم ، ولهذا نبتك ، يا هذا ، الى من يلزمك ان تتعمد عن مخالطتهم ، لما يخشى عليك من سوء تأثيرهم ، او الى من يفيدك التردد اليهم ، وبمد ذلك نقول شيئاً في مطالمة الكتب واستعمال سائر المحسوسات .

اما الأشخاص فلا حاجة الى ان نكرر هنا ما في كتب الارشادات من التوصيات القوية باجتناب مباشرة السفهاء ، وبصيانة قلبك من السم الزعاف المتدفق من شفاه فاسدي الاخلاق ، فنقتصر على الاشارة فقط بان تحترز ايضاً من معاينة ضفاف الارادة ومقلبيها المائلين الى اليأس والمسلمين الى التشاؤم ، لتلايقوا فيك شيئاً من هذه المضادات لحزم الإرادة ، بكلام التملق والتسويه .

واذن فان الذين يفتك ان تؤلفهم هم اصحاب النفوس الكروية والقلوب الجريئة ، والفرام الحميدة ، المستعدون لبذل كل حال ونفيس في سبيل منقضة

النير ، وما يساعدك على تقوية ارادتك اكثر من المحادثات البسيطة ، انما هو استشارة بعض من وضعهم عناية الله في طريقك ، والذين تراهم قادرين بفظتهم وجزيل فضائلهم ، ان يثيروا عقلك ويحركوك على المقاصد الحميدة . . . فما احسن وما انفس العادة السائدة في المدارس الكليريكية ، وبعض الجمعيات اوهي ان يطلب كل واحد مشورات مرشد روحي يفضي اليه باحوال نفسه ، وحركات قلبه ، بما يمكن المرشد من اعطاء النصائح التي توافق طبع ذلك المرشد ، وتحدد خطاه في سبيل الكمال .

فمن تقلد ارشاد غيره فلا يحمل شيئاً مما في وسمه ، ليصير هو نفسه ذا ارادة قوية كاملة مزينة بجميع النضائل الاديوية ، حتى يستطيع ان يفيض من تلك المياه المحيية - التي امتلا هو منها - على نفس تلميذه ، وليجعل كلامه جزيل الافادة ، ان بسداد مشوراته وإن بلين جانبه ولطيف مناقبه ، والتوافق الكامل والدائم الذي بين اقواله وافعاله ، فحيثما التقى مرشد متصف بهذه المبادئ بتلميذ راغب في الاسترشاد ومقتاد للنصائح ومجتهد في تنفيذها ، حصلت ولا شك الافادة ، وتم السرور .

واما مطالعة الكتب فاعتن بصيانة نفسك من الخطر الناجم ، ليس من المؤلفات المفسدة والمضلة فحسب ، بل من الحكايات الخيالية التي تملأ ذهن القارئ اوهاماً باطلة يقاد ساعها ، ويولع بها مفضلاً ايها على الحقيقة ، فيضيع وقته في تحقيقات لا طائل فيها ، واحذر كذلك من الكتب التي تحمل قارئها على ضف النفس والحيانة كما قلنا عن المحادثات . واذن فطالع كتاباً تعرض عليك امثلة الحزم والبسالة والتضحية بالذات ، والصبر الجميل على المصاعب والشدائد ، فان مثل هذه المطالمة تنفع جداً لترغيبك في كل ما هو كريم وحميد ، فهي اذن من افضل الوسائل التي تقوي بها ارادتك وتقدمها للاقدام على المشاريع العظيمة وعلى احتمال بلايا هذه الحياة ، والانتصار على تجاربها .

واليك الآن بعض تنبيهات ايضاً ، بخصوص المناظر التي تمتع طرفك بها ، فان لما تأثيراً ليس بقليل في قلبك واخلاقك ، ويصح فيها ما قلناه عن مطالعة الكتب ، اي ان بعضها يفهم العقل من الاخيلة والافكار الباطلة التي لا تخلو

من مفاعيل مشؤومة في الارادة التي تتمرد الاثناذ بتلك الاوهام والاحلام ، مع التضاضي عن حقيقة الاحوال والواجبات . هذا اذا ضربنا صفحاً عن المناظر القبيحة ، التي لا حاجة الى القول ان الابتعاد عنها هو واجب مهم ، لان عملها في ارادة من يتوعددها هو كمثل السم في جسم من يتناوله . ويقال هذا ، خاصة ، عن التمثيل الخلاعي ، وعرض الصور المتحركة البديئة فوق المراسح ، حيث يتأثر كل حاضر ، ليس مما يتقدم لانظاره فقط ، بل مما يسمه من الكلام والاغاني ، واصوات آلات الطرب ، وكلما كانت لذة الحواس اشده ، كان هيجان الشهوات اقوى ، وتسلطها على الارادة اكل . فلا غرو اذا ان تحسب تلك المحال التي تتردد اليها الجماهير لحضور هذا التمثيل من اقدر العوامل على انتشار الفساد في الاخلاق العمومية ، واكثر الجرائم بين ابناء جيلنا التمساه .

فبينما نحترس من تلك المهالك ، لا تهمل مساعدة نفسك ، ومعالجة ارادتك ، بمناظر اخرى نافمة ، لاهياء الشواعر النبيلة ، واناء الافكار الخلاصية في الذهن ، فانك تستفيد اولاً من المشاهد الجميلة التي تعرضها الطبيعة لانظارك ، في اماكن مختلفة . كالجبال العالية ، والارض المغطاة بالطفانس السنسية ، او حركة امواج البحار ، وما اشبه ذلك ، فان التأمل في مثل هذه الثرائب يرفع النفس فوق دنايا الارض ، ويزيدها استعظاماً لحكمة الخالق ونشاطاً في عبادته . ولقد يتيدك جد الافادة ، حضور تمثيل روايات صالحة اخلاقية ، فانها نافمة لتهديب الارادة ، وكذلك سماع الاغاني والتراتيل الروحية الجميلة ، فكل ذلك مما ينشط الاحساس ، ويزيد الارادة بقضاً لجميع المنكرات .

لكن افضل ما نستطيع استعماله في هذا الباب هو الاشتراك في الاحتمالات الدينية الشائقة لان لها قوة مجيبة في تشديد القوى العقلية وترغيب النفس في ممارسة جميع الفضائل . كما يحدث خصوصاً حيث يقترن بهاء ازديان الميكل بجلالة الطقوس والرتب المقدسة ، فلا شك ان تلك الكنائس التي تجري فيها هذه الاحتمالات الجزيلة التأثير لهن اشبه بمدارس يتهدب فيها الشعب على الاجمال ، حتى ان الجهال ذاتهم يتعلمون الديانة ، ويتحركون الى السعي في حبة الله ، وتبجيل كل ما يختص بعبادته تعالى .